«المثقفون» ومسؤوليات العصر

بقلم فريدة النقاش

« اذا كنا ننتظر كي نلتزم ان نلقى الشمال المطلق فلن نفعل ابدا شيئا ما ، ولن نحب ابدا شخصا ما »

سيمون دي بوفوار

✶

كانت محنة المثقفين الفرنسيين في فترة مابعد الحرب الثانية والاحتلال الالماني عصيبة وقاسية اذ ان احدا منهم لم يكن يعرف بالتحديد الى اين تسير بلاده بعد الحرب . دولة ذات مستعمرات تجد نفسها فجاة وهي محتلة جاثية على قدميها امام هتلر ويقف فيها من ينادي بالتفاوض او الاستسلام ، في حين كانت فرنسا تزهو على اوروبا وعلى العالم بثقافتها وفكرها . كان أنبل مافي اوروبا يتجسد في فرنسا وحدها من اوائل القرن العشرين حتى بداية الحرب الثانية ، وكان مثقفوها يشعرون ان لهم دورا خطيرا يؤدونه للعالم كله . حين يحملون له بلورة لتراث اوروبا وحضارتها ، وكان الانغماس في مشكلات الفن والفكر والفلسفة هو سمة الفترة التي جاءت قبل الحرب ، فباريس حينئذ هي كعبة كل الراغبين في التعرف على اوروبا ، ومثقفوها هم سادة الفكر في العالم ، كان همنجواي ، وازرا باوند وبيكاسو يعيشون هناك ويخرجون افضل اعمالهم . وفي الحي اللاتيني كانت تمتزج كل ثقافات العالم وتتفاعل مع الفكر الفرنسي ، ومن الحي اللاتيني خرجت في ذلك الوقت كل الاتجاهات الجديدة التي عرفها الفكر الحديث في الرسم والنحت والقصة والشعر ، ومن هناك انتقلت الى جميع ارجاء الدنيا المدارس والتيارات الجديدة في الفلسفة ، وكان من حق المثقفين الفرنسيين حينئذ ان يشعروا بان العالم مدين لهم بالكثير وان لهم دورا هاما يؤدونه في التاثير على قلب الانسان وفكره اينما كان .

وجاءت الحرب الثانية والاحتلال الالماني لفرنسا ، فوجد المثقفون انفسهم فجاة مطالبين بان يحددوا موقفا من الصراع الدائم في بلادهم لان فرنسا التي كانت مفخرة اوروبا وقلبها هي الان مهيضة الجناح محتلة وجاثية ، لا تستطيع ان ترفع صوتها ولا ان تصمد امام هتلر اكثر من ايام . انها مأساة تهدد الغرب كله ، واذا كان رد فعل الجماهير العادية واضحا ومعروفا منذ البداية ، فماذا يفعل المثقفون الذين كانوا الى عهد قريب يقفون في معسكرات متصارعة مزدهرة ، حيث لكل مدرسة ابناؤها ولكل اتجاه رواده ولكل فيلسوف جديد حواريوه وانصاره ؟ هل يأتي هتلر يوحد بين هذه الصفوف المتنازعة ويفرض عليها ان تقف جميعا جنبا الى جنب لمحاربته ؟ كان هذا هوما حدث بالضبط ، وجاء تشكيل لجان المقاومة من بين المثقفين مزيجا غريبا من كل الاتجاهات : الوجوديون والشيوعيون والاشتراكيون ، اليمين واليسار جمعتهم كلهم محنة واحدة وهدف واحد هو التصدي لهتلر وتنظيم مقاومة ترفع راس فرنسا وتحمي حضارتها وتاريخها من الفضيحة كانوا يختلفون على كل شيء وجمعتهم المقاومة فانضموا الى صفوف الشعب الفرنسي بلا هوية . انهم جميعا فرنسيون يواجهون تمرد هتلر ، توحد بينهم الدعوى بان حضارتهم مهددة فلم يكن في خيال اي منهم ان يوما كهذا سوف يأتي ، يوما تسقط فيه فرنسا هذا السقوط الفاجع المخجل ، فرنسا الفنانة ، الجميلة ، المزهوة بنفسها تنهار ببساطة مذهلة حتى ان العالم لا يصدق نفسه ، كان دورهم جميعا اذن هو ان يثبتوا شيئا اخر ، ان يقدموا نموذجا للصمود وان تكون المقاومة عملا حقيقيا من اجل بلادهم . وهكذا اجتمعت المتناقضات والتامت جميعا في حركة ضد المانيا دفاعا عن شرف اوروبا كلها ودفاعا عن كرامة الانسان فيها . وانتهت المقاومة ــ التي ساعدتها ظروف العالم والحرب ــ بانتصار المناضلين الفرنسيين وخرجت جيوش الاحتلال وصد الغزو ، وبدأ العالم يستعد ليعيش حياة طبيعية مرة اخرى وعادت فرنسا من جديد لتنظر الى داخلها حيث خرجت متناقضات الماضي لتعلن عن نفسها من جديد ، وتطفو الى السطح بقوة اشد عما لو ان فترة اندماجها قد منحت فرصة اكبر للقوى المحتلة لها لكي تكشف عن خلافاتها فيما بينها اكثر مما اكتشفت نقاط الالتقاء فيما بينها . لقد جمعتهم المقاومة في مرحلة كانت بلادهم في حاجة الى كل جهد متعاون يبذلونه والى كل كلمة موحدة يقولونها فقد تؤثر في الشعب الفرنسي وتزوده بالقدرة على النضال والصمود كشعب وكافراد .

وفترة ما بعد الحرب هي التي تؤرخ لها سيمون دي بوفوار بروايتها الكبيرة « المثقفون » اذ ان احداثها تبدأ مع اندحار الالمان وانتصار فرنسا وتدور جميعا حول موقف المثقفين الفرنسيين من القضايا المختلفة التي كانت ــ وما زال بعضها ــ تواجه اوروبا حينئذ بشكل خاص فرغم ان هذه المشكلات كانت تبدو كما لو انها تواجه اوروبا وحدها فانها كانت في الواقع صدى وانعكاسا لكل ما يدور في جميع ارجاء العالم من تغيرات في كل مجالات الحياة . وعلى هذا الاساس نستطيع ان نعتبر « المثقفين » ليست مجرد تسجيل لفترة من تاريخ اوروبا كان يعيشها المثقفون بكل وجدانهم وجهدهم ، ولكنها ايضا تسجيل عميق لازمة كل مثقف اينما ومتى كان حين يجد نفسه امام متناقضات لا يستطيع حلها ولا يستطيع ايضا ان ينفض يديه منها ولا يعرف على وجه التحديد أي دور يستطيع ان يؤديه وبأي الوسائل .

فمع بداية القصة نواجه بذلك الفرح الغامر بالنصر ، ففرنسا حرة من جديد ، هتلر اندحر ، والعالم يتقدم ، والسلام يرفرف باجنحته البيضاء على كل شبر من الارض ، وتستطيع الضحايا ان تهدأ في قبورها « فالهجوم قد اوقف والالمان اندحروا ، ساستطيع الرحيل » لقد ان الوقت لكل الاحلام الصغيرة كي تتحقق ، حلم الانسان ان يكون حرا ووحيدا امام نفسه وامام العالم ، ان يعود كل شيء الى براءته وصفائه حيث لا يكون المرء مطالبا بحمل السلاح ، وسوف يجد « المثقفون » انفسهم احرارا مرة اخرى ليكتبوا ويعيشوا معارك القلب الانساني مع الحياة ويعانوا ذلك النوع من التجارب الذي طالما افتقدوه اثناء الحرب ، ان تكون للانسان كفرد حياته الخاصة وان يعيشها الفنان والمفكر وينطلق منها الى الافق الانساني الاوسع ويكون بذلك اداة لنقل حياة الناس البسيطة والتعبير عنها ، وكانت فكرتهم عن المشاركة في التأثير على حياة الناس هي ان اوقع الوسائل على الاطلاق انما هي مخاطبة الوجدان الانساني مباشرة ووسيلتهم الى ذلك ــ الصدق « فهو انسان كسائر الناس عندما سيتحدث عن نفسه بصدق سيتحدث باسم جميع الناس ، من اجل جميع الناس » وبذلك لن تكون قضايا «دوبري» بطل الرواية شيئا قائما بذاته منفصلا عما عداه .

وبالطبع لن يكون تصور المثقف الفرنسي حقيقيا بعد انتهاء الحرب

والاحتلال ، لقد برزت المتناقضات من جديد. وبعد ان كانت قبل الحرب ترفا يخصهم وحدهم اصبحت بعد الحرب قضية حياتهم التي ارتبطت ارتباطا مباشرا بالملايين من كل مكان ، حين اخذت تنظر الى المستقبل برعب متزايد ، فقد انتهت الحرب حقا ولكنها تركت وراءها اثقالا من القضايا والمشكلات المعلقة التي جاءت نتيجة ضغط على عوامل مختلفة في مرحلة من اغرب مراحل التاريخ الانساني واكثرها تعقيدا ، فقد برزت احتمالات ما لبثت ان تحولت الى وقائع لم تكن في حساب احد انقسم العالم بشكل صريح الى معسكرين كانا الى عهد قريب متحالفين وكان تحالفهما يشبه الى حد كبير تحالف القوى المختلفة في فرنسا اثناء الاحتلال ، فبعد ان نجح الحلفاء في القضاء على هتلر بدأوا في البحث عن حلول لمشاكلاتهم ، واخذت خلافاتهم تظهر بوضوح اكبر امام العالم وتضاءلت فرص السلام والتعايش فيما بينهم وبدا للناس ان الفترة التي تلت الحرب الثانية ليست الا هدنة ، مرحلة اعداد للحرب القادمة بين العدوين الرئيسيين : اميركا والمعسكر الشرقي .

وكانت بوادر الحرب الباردة تلوح في الافق اما المستقبل فهو مسدود اسود بلا ملامح .

كان هذا هو الوضع في العالم كله . اما في داخل فرنسا ، فقد كانت كل قضايا العالم بلا استثناء تنعكس عليها وتؤثر فيها ، وهكذا لم يجد « المثقفون » فرحهم المنشود ، لم يجد «دوبروي» و «هنري» و «آن» حلمهم ، بل على العكس من ذلك ، فلقد تبينوا جميعا في النهاية ان واجبهم يحتم عليهم ان يلقوا بانفسهم في قلب العالم الجديد دون تردد حتى « لا يتم المستقبل بدونهم » .

ولكي لا يتم المستقبل بدونهم كان عليهم ان يتخذوا من القضايا التي واجهتهم واخطرها على الاطلاق هي علاقة المثقف بالسياسة : هل يحتم عليه واجبه ان ينزل الى ميدان العمل السياسي ؟ ما الذي يمكن ان يفعله ازاء التيارات المتناقضة التي تحارب بعضها بضراوة وكل منها يدعي لنفسه الحق والتفوق والشرف ؟

الشيوعيون يقفون بلا مناقشة الى جانب الاتحاد السوفيتي ويبررون كل اخطائه ومواقفه، واليمينيون يقفون الى جانب اميركا ويرون فيها بديلا لاوروبا المنهارة الممزقة الحزينة . لقد كانت اميركا في ذلك الوقت مزدهرة ، كل شيء ينمو فيها ويتطور ، فقد خرجت من الحرب باقل الخسائر واكثر الارباح وتطلعت عبر المحيط الى اوروبا تريد ابتلاعها وترى في ذلك عملا مشروعا وسهلا ، بل انه حقها الطبيعي : الم تحم اوروبا اثناء الحرب ؟ الم تحسم الامر كله بالقاء قنبلتها الذرية على هيروشيما حيث تقرر مصير الحرب من لحظتها ؟ فما الذي يفعله المثقف ازاء كل هذه التحديات ، المثقف الذي يقف وحيدا بلا معسكر ؟ ان ضميره لا يطاوعه ان يقبل بتسلط اميركا وصلفها وكبريائها الفارغ ، وهو لا يستطيع ايضا ان يغمض عينيه عن اخطاء الاتحاد السوفيتي التي تصل في كثير من الاحيان الى حد لا يحتمل من البشاعة واللاانسانية ، انه لا يستطيع ان يسقط في اللامبالاة ويعزي نفسه بانه ليس الا « مواطنا منسيا من الدرجة الخامسة » وما دامت فرنسا لم تعد تستطيع شيئا كما يقول هنري « فما الذي يستطيعه لها » ما الذي يمكن ان يقدمه على التحديد، ان احدا منهم لا يرتفع باحتجاجه ابدا الى مستوى الفعل ، فقد كان وعيهم يحملهم مسؤولية دائمة ، فما دام يعرف ان له اداة يؤثر بها فهو يرى ان من واجبه الا يتقاعس ولكنه في الوقت نفسه يريد ان يشعر « انه مفيد دون ان يضحي بفرديته » فالحرية ، قضية المثقفين الخالدة تعود من جديد لتناقش على نطاق كبير ، حرية الانسان في ان يعيش كما يحب وان يتصرف كيفما شاء ، والا يكون مطالبا بأن يؤدي التزاما ما فالعالم يكرهه او يحتج عليه ، هذه القضية تعود من جديد لتعلن عن نفسها بحدة وتصبح من اخطر قضاياهم ولان « المثقفون » يعرفون اكثر من غيرهم ويحلمون ايضا اكثر من غيرهم فان عليهم مسؤوليات لا يستطيع تحملها ، واداءها غيرهم ، هم الذين يعرفون بان الكثير من الاشياء تصبح باطلة « عندما يفكر المرء بتلك المئات من الالوف من الجالسين » ان قلوبهم تتسع للعالم كله ولكن العالم كله لا يستطيع في الوقت نفسه ان يعطيهم تعويضا عن حريتهم وليس من حقهم ايضا ان يطالبوا بالتعويض . فمن الذي يمنح تعويضا اذا كانوا ينشدون النوع فلا امل هناك « ان الارض حزينة في كل مكان» « العصر كله حزين » .

واذا ما قرر «المثقفون» ان يتخلوا عن حريتهم وان يلتزموا واجهتهم قضية اخرى : فبم يلتزمون ؟ هناك الف حل والف وجهة نظر، وهم ليسوا انبياء . لقد مضى الوقت الذي كان من الممكن ان يجدوا فيه الدين حلا ، ولهذا اصبحت علاقتهم بالارض اشد رسوخا وعليهم الان - على هذه الارض ان يقودوا جماهير غفيرة تنظر اليهم وتسمعهم ولان قلبهم كبير يتسع لكل عذابات العالم فهو لا يطاوعهم ابدا ان يقبلوا الالتزام بأي شيء ، فأي خطأ صغير له حسابه ، والتاريخ لا يغفر شيئا ، ومحنة العالم تتجسد امامهم في كل حدث وكل مكان . ففي الوقت الذي يبحثون فيه عن حل لمشاكل فرنسا يعانون من احساس دائم بالذنب لانهم ينتمون الى حضارة تضطهد العالم وتسير بنفسها الى الهلاك . فبلادهم تمارس ابشع انواع الظلم والاضطهاد ضد شعوب اسيا وافريقيا التي تحتلها بدون حق وهي تمثل بالنسبة لهذه الشعوب ما كان يمثله هتلر بالنسبة لها ، كل ما تغير من الامر ان اضطهادها لهذه الشعوب قد اتخذ بعد الحرب صورة اكثر شراسة وقسوة .

واصبحت مذابح الهند الصينية والجزائر وصمة في جبين فرنسا تضاهي في بشاعتها سقوطها المخجل امام هتلر . ليس هذا فحسب ان اوروبا كلها تغمض عيونها وتصمت امام تسلط اميركا، فهي تلقي قنبلتها على هيروشيما دون ان تلقى احتجاجا او لوما من اوروبا سيدة الحضارة والمثل العليا .

سيمون دو بوفوار

وامام هذا الواقع المتناقض المؤلم كاد المثقف الفرنسي يرى ان عليه ان يدافع بضراوة عن حريته الخاصة اذ اراد ان يعيش حياته دون ان يتحكم في تحديدها اخرون . فحين تصرخ « آن »بطلة الرواية « لست انا التي خلقت السماء والارض ، وما من احد يسالني حسابا فلم اهتم طوال الوقت بالاخرين ؟» فانما هي تعبر عن حلم يراود كلا منهم ، والحق انه ما من احد يسالهم حسابا ، ان ما يسالهم حسابا هو كونهم يعرفون اكثر من غيرهم « ان هناك ..٤ مليون جائع في الصين» ان الحرية حينئذ لا تعني شيئا امام هذا الفيض من البؤس « فحين تصبح المسألة مسألة جماهير بلدها البؤس والخرافات ، فما معنى معاملتهم كبشر ؟» ولكي يجدوا حلا لهذه المحنة التي تؤرقهم لم يكن امامهم الا ان يختاروا بين اميركا والنظام الراسمالي الذي تمثله وتبشر به حلا لكل مشاكل الشعوب ، وبين الاتحاد السوفياتي الذي سبق كل الاشتراكيات المكنة الى الوجود ، وبذلك تفوق عليها جميعا . وهناك « يعامل البشر كاشياء لا يثق احد بحريتهم ، باحكامهم ، بارادتهم الطيبه » ولكنهم لم يفضلوا احد الاختيارين ، ومن قلب التناقض الموجود في واقعهم اخذت فكرة اوروبا الاشتراكية تتضح في اذهان المثقفين ، اوروبا تلعب دورها الحقيقي في هذه المرحلة من التاريخ مستجيبة لنداء

العصر والشعوب لها ، ان تحالفا لا بد ان يقوم بين اليسار غير الشيوعي كله حتى يبرز الى الوجود هذا الحل الذي توصل اليه « المثقفون » من خلال تجربتهم العريضة مع كل الاتجاهات التي تتصارع في بلادهم والتي تبلورت في اتجاهين احدهما ينتمي انتماء كليا وهو اليمين ، الى اميركا ـ واوروبا الاستعمارية ، والاخر وهو الاتجاه الشيوعي ينتمي بلا مناقشة الى المعسكر الشرقي ، وبذلك ينقل كل منهما المعركة الدائرة بين امريكا والشرق الى داخل فرنسا في حين ان المشكلات التي كانوا يرون انها رئيسية واساسيه لم تكن تعني الجماهير الفرنسية في صميم مصالحها اليومية خاصة وهي منغمسة في بناء مستقبل لا تعرف بعد لونه . اما توصل المثقفين الى هذا الحل فقد كان خلاصة جهدهم المستمر من اجل مصير يتفق وحضارة الانسان الفرنسي وماضيه ، مصير تستطيع فيه الجماهير التي بذلت جهدا لا يوصف في مقاومة هتلر ومحاربته وبذلت الدم والروح بلا تردد تستطيع ان تجد مكانها الحقيقي وان تعيش حياتها الحقيقية ، ولم تكن اوروبا الاشتراكية بالنسبة لهم حلما فحسب وانما كانت حقيقة مجسدة لو مدوا ايديهم لاحسوا بها لفرط ايمانهم . ومن هنا كان تكاتفهم لتكوين حزب يدعو لفكرتهم ويعبىء لها الجماهير ، وكان « الاشتراكي الثوري الحر »تحالفا بين اليسار الفرنسي غير الشيوعي يرفع شعار الاشتراكية دون ان يغمض عينيه عن اخطاء تطبيقها في الاتحاد السوفيتي ويمد يده للشيوعيين دون تحفظ حين يكون الحق معهم . ولكنه كان يرتبط اساسا بمصالح الفرنسيين . كان يريد ان يحقق مجتمعا بلا طبقات دون ان يكون مضطرا لتطبيق اخطاء السوفييت في فرنسا ، وهو على ذلك يدين النظام الراسمالي بشدة لانه يقوم في صميمه على العبودية ، على اضطهاد طبقة لطبقة ، ومن ثم اضطهاد شعب لاخر . وحول « الاشتراكي الثوري الحر » قامت معركة عنيفة كان جوهرها الالتزام ، فلكي يلتزم المثقف يرمي بكل شيء اخر خلفه لينغمس في العمل المباشر من اجل اهداف امن بها ، ام أن مازال له الحق في ان يلتزم ويعيش حياته في ان واحد ؟

للقضية اذن طرفان : احدهما يمثله دوبري المفكر والكاتب الكبير الذي يرى ان على كل مثقف في هذه الفترة مسؤولية تاريخية ، لكي يؤديها بامانة يجب ان يكرس حياته وفكره لها ، ليس هذا فحسب وانما عليه ايضا ان يتخلى عن حريته الخاصة تماما وان يغطس بكامله في قلب نظام يلتزم به ازاء نفسه وازاء العالم ، وهو يعلن ذلك متبنيا الدعوة الى « الاشتراكي الثوري الحر » الى اوروبا اشتراكية تصفي كل ماضيها المثقل بالاخطاء وتتصالح مع الشعوب التي اضطهدتها وتتفرغ لمشاكلها ولا تكون مرغمة او مغلوبة على امرها حين تقف بعيدا عن اميركا او تدين الاتحاد السوفييتي ، وكان « دوبري » يرى ان المثقف الفرنسي هو القائد الحقيقي لهذه المعركة ، وهو لن يقودها معزولا عن الجماهير ابدا وانما هو يتصل بها مباشرة ، ليكتب لها كتبه وينزل اليها بفكره ليكون اداتها في التعبير عن نفسها وبذلك يستطيع العالم كلم ان يسمع صوت الشعب الفرنسي من خلال مثقفيه ، وكان « دوبروي » يصل من ادانته للذين يتخلون عن دورهم الى حد اتهامهم بالخيانة ، فالقضية بالنسبة له وعما يجب ان تكون بالنسبة لهم قضية مصير لا يعني احدا، فيكفي « ان جيله كله مسؤول عن الحرب التي لم يعرف كيف يمنعها » عليه على الاقل ان يمنع حربا ما تزال في ضمير الغيب ، وفي سبيل ذلك فليتخل عن اي شيء كان ، انه حتى على استعداد للتخلي عن كتبه في سبيل ثورة شاملة هو « مقتنع بانها لكي تنسجم مع نواياه الانسانية فلن تتم بدون تضحيات قاسية ، فأي حظ تحتفظ به القيم القديمة الحقيقة ، الحرية ، الاخلاق الفردية ، الادب والفكر » ان على المثقفين ان يلائموا كل الحقائق القديمة والاحلام والافكار القديمة مع الواقع الجديد ، عليهم ان يحاولوا هم انفسهم « التلاؤم معه » وليس التلاؤم هنا هو الرضوخ للواقع كما هو ، وانما هو تلاؤم ، في رأي « دوبروي »

صدر حديثا :

الحضارة العربية الجديدة
وحتمية الثورة

تأليف

أنور قصيباتي

* ان حضارة جديدة تلوح في الآفاق البعيدة ، وان العرب هم الذين سيبدعون هذه الحضارة .
* ان الثورة هي الطريق الوحيد لاقامة هذه الحضارة، ولن تتحقق الا بالتدخل الارادي

الثمن ٢٠٠ ق٠ل ـ ٢٥٠ ق٠س — منشورات دار الآداب

من حيث انه ليس رفضا ، فلكي نغير شيئا يجب ان نعيشه اولا ثم نحكم عليه بعدئذ ، ومن هنا نستطيع ان نجري عليه التغيير الـذي نريـد ، كان الوعي اذن هو حظهم الوحيد وسلاحهم الكلمة ، لذلك كان الصمت والتوقف عن الكتابة يؤرق « دوبري ». وحين يأتيه جندي شاكيا بعـد رحلته الى البرتغال حيث يقف على بؤس العالم حقيقة ولا يستطيـع ان يكتب شيئا اذ يجد نفسه عاجزا عن الحركة ، عاجزا عن التنفـس وكيف يستطيع « ان يصف الاضواء الصغيرة على طول نهر « التـاج » مادام يعلم انها تضيء مدينة تفطس جوعا ، والناس الذين يفطسـون جوعا ليسوا ذريعة للعبارات » ولكن « دوبروي » الصامد الى النهايـة يقول له « اظهر الجمال وبؤس الضواحي في ان واحد فهذا ما يجـب ان يكون عليه ادب يساري . ان يرينا الاشياء من خلال منظـور جديـد بوضعها في مكانها الحقيقي » وهو لذلك يرفض الادب « الصـافي » لانه كلمة لا معنى لها وهي كلمة خطرة ، اننا نعرف الى اين يؤدي هـذا عندما نزعم اننا نعزل الادب عن ما عداه . فليس الادب ترفا تختص بـه طبقة وحدها ، ولكنه سلاح من اهم اسلحة المعركة واشرسهـا ولكـن « دوبروي » لا يصل ابدا الى حد المطالبة بتكريس الادب ليصبح اداة دعائية في يد فكرة ما ، فهو لا يريد ان يفقر العالم ويجعل من كـل تجارب الفنانين والادباء شيئا عاما « فالتجارب الشخصية موجودة » ولا بد من التعبير عنها ولكن ليس عزلها عن كل شيء اخر عملا مستحبا فـي هذه المرحلة من تاريخ البشرية كلها ، فقد كان ملايين البشر يموتون مـن حولهم في كل شبر من الارض « دون ان يكونوا قد عاشوا مطلقا » فكيف يختص المثقفون بهذا الترف ، ترف الانعزال والتفرد ومراقبة العالم ؟

وعلى الطرف الاخر كان يقف « هنري » الفنان الشاب ذو السبعة والثلاثين عاما الذي لا يستطيع ان يضحي بحريته ولا يستطيع ان يقـف لا مباليا متفرجا فهو يدير جريدة يومية تسير في خط اشتراكي ولكنها لا تنتمي الى كتلة او حزب ما ، وهو يمنح « الاشتراكي الثوري الحر» تأييده ولكنه لا ينتمي اليه صراحة وهو يخوض معركة عنيفة مـع «دوبروي » حتى لا تصبح « الامل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » الرسمية ، انه لا يستطيع ان ينتمي انتماء كليا الى شيء ما ، فهـو لا يجد من الشجاعة ما يجعله ينصب نفسه حتى على الاخرين يدين هـذا ويحكم لذاك ، لم يكن يجد في نفسه هذه الجرأة فهو « لايعرف ـ بما فيه الكفاية » فباسم اي شي يطلب الى العالم ان يعترف به وحده الصواب، وهو لكي ينتمي الى شيء ويلتزم به امام نفسه فلا بد ان يكـون لـه دور ما يؤديه ولا بد ان يجد تعويضا لانه حين يعلن انتماءه « سـوف يخسر عالما ولا يجد بديلا عنه » . ومن ناحية اخرى فهو قبل ان يلتزم يقف وحيدا كل صباح لكي يشرح لمائة الف شخص ماذا يجب أن يعتقدوا « وبماذا اهتدى ، بصوت ضميري » وهو يصرخ في النهايـة « هـذا غش » وبذلك يعلن انتماء « الامل » لتصبح جريدة رسمية للحزب الذي التزم هنري بمبادئه ، وهو لا يعلنذلك الا بعد تجربة مريرة يعيشها في البرازيل حيث يرى بألف عين ويستمع بألف اذن الى بؤس العالم « كان يتمنى انذاك ان ينتهي العالم من هذا البؤس كله ، ولكن هذه الامنيـة تظل مبردة ، ولم يرغب ايضا في الهرب ، كانت هذه الرائحة البشريـة العنيفة تدوخه ، انه من اعلى التل الى اسفله الطين نفسه ، والسماء نفسها تشرق خلف الاسطحة ، وكان يخيل الى هنري انه بين لحظـة واخرى سيجد ثانية الفرح القديم في كل كثافته وكان هذا ما يطـارده من زقاق الى زقاق ، لكنه ما كان يجده ، كانت النساء الجالسـات امام الابواب يقلين سمك السردين على قطع من فحم الخشب ، وكانت رائحة السمك النتن تغطي رائحة الزيت الحار ، وكانت اقدامهن حافية، هنا جميع الناس يسيرون حفاة ، ولم يكن في الاقبية المفتوحة عـلى الشارع سرير او قطعة اثاث او صورة ، بل حصر واطفال ملطخون» وحين يقول لنادين رفيقة رحلته « انظري الى تلك الاضواء الصغيرة على حافة الماء ، ما اجملها » يكون ردها « لعلها تكون جميلة لو اننا لا نعـرف ما وراءها ولكن عندما نعرف ذلك ..؟ »

اكتشف هنري بعد رحلةالبرازيل كل شيء ، عرف جيدا ما الذي يجب ان يكونه ، ان الصمت جريمة ، والسلبية شيء بغيض اذا مـا قورنت بعذاب العالم الذي هو اكبر كثيرا من « وهمه القديم بالحريـة والقوة » الذي اصبح الان كذبة كبيرة ، فهو لا يستطيع ان يكذبها عـلى نفسه لانه لا يستطيع ان يغمض عينيه ويحلم ، ولا يقدر على ان يفخر بالامل لانها محايدة انما ذلك بالاحرى خيانة ، فاما ان يكون مع الانسانية او ضدها ، والانسانية تتلوى من البؤس والظلم « فالظلم في كل مكان » واسطورة الحرية قتلتها بشاعة عذاب يبدو كما لو انه ليس من هـذا العالم ، ان له رائحة وطعما ولونا في كل مكان ، وحين تقول له «آن» انها لا تعرف « كيف تجمع ٤٠٠ مليون من العينين وخمسة عشر مليونا من المدعوين بالعمل الاجباري في الاتحـاد السوفياتـي » وهـي تستدرك « ربما كان الطرح اوجب » فهو يشعر ان الفخ محكم عليه جيدا ، فحين يتصور انه يفلت يطبق عليه في اللخظة ذاتها ، وحين يعلن هنري التزامه في النهاية يشعر براحة عميقة ، فلم يعد الصراع في داخله بالدرجـة الاولى وانما هو صراع بين ما ينتمي اليه وبين اخرين . انه اذن « يوحد ارادته بارادة جماعية ضخمة . يا له من سلام ، يالها من قوة ، فما ان يفتح المرء فاه حتى يتكلم باسم الارض كافة ويصبح المستقبل من صنعه الشخصي » وقد قرر هنري في النهاية ان يبذل جهدا للمشاركة في بناء المستقبل حتى « لا يتم بدونه » انه امام كل شيء وامام كل احتمـال لا يستطيع بعد ان يقف وحيدا ، حتى كتبه ، « سوف اكتبها في الزمـن الحاضر » ان عليه للحاضر دينا يجب ان يؤديه ، ففيه بشر يتحركـون وقصصهم تملأ الارض وعليه ان يحكيها لهم ، اما الماضي فمـا الـذي في الحاضر « فضوله ، طموحه ، كل ذلك التمسك بالفردية ، ما كـان اسنجه » .

وعلى اي حال فقد انتهى الماضي وهو لا يملك له شيئا . اماالمستقبل فهو لا يعرف لونه ، بقي الحاضر ليغوص فيه ويكتب عنه كتبه لا يشرح اخطاء حياته او يجد لها اعذارا ، وانما ليقول حقيقتها ، كـان الزمـن الحاضر يبدو لهم بلا مستقبل ، وكان حزينا ويستحق ان يكتبوا له كتبهم وبين طرفي الشد والجذب بين « هنري » و « دوبروي » بطلي

صدر حديثا :

عيناك قدري

قصص

بقلم غادة السمان

الثمن ٣ ل.ل

منشورات دار الاداب

الرواية الرئيسيين يقف ابطال اخرون محتلين تيارات مختلفة فمنهم الذي اعلن انتماءه منذ بداية القصة بلا عناء مثل سكير ياسين النمساوي الاصل الذي يرى بانه لا حل امام مثقفي اوروبا الا ان يرضوا باميركا لتعوضهم عن اوروبا الزمن الماضي ، وهو يرى انه طالما ان المجتمع اللا طبقي سوف يحقق يوما ما ، من الافضل ان يتحقق في ظل اميركا . وكان منطقه المرير الخاطىء يستند الى ان الاتحاد السوفياتي يعامل البشر بقسوة لاانسانية ، وان حكومة اشتراكية تسمح لنفسها بتكديس ١٥ مليون مواطن في معسكرات العمل الاجباري حيث تجري عليهم عملية تمويت بطيئة أو على النقيض كان « لاشوم » الذي انتسب الى الحزب الشيوعي دون ان يرهق نفسه في البحث عن بديل اخر ، اما «فانسان» الذي يتبنى فلسفة العنف ويكون عصابة تغتال كل من تعاونوا مع الجستابو ضد المقاومين اثناء الاحتلال الالماني لفرنسا فقد كان نموذجا لجيل ضائع ضل الطريق الى الصواب منذ بداية الحرب ، فقد اشتعلت وهو مازال يخطو الى الرجولة وشرب كل مرارتها وكان الجرح الذي تركته فيه عميقا لم تكن الايام والمصالحات قادرة على غسله ، حتى انه كان يدين بشدة كل الذين يجدون أعذارا للمتعاونين والذين خانوا او صمتوا ، لقد كان رد فعل الحرب والاحتلال في نفسه عميقا وعنيفا ، وظل يلازمه طوال حياته حتى ان العنف اصبح تسلية .

وكان هناك « لامبير » الذي يعلن نفسه محايدا منذ بداية الرواية حتى لهايتها وينفض يديه من كل شيء ، فهو لا يستطيع ان يلتزم بمبادىء لا يؤمن بها في داخله وهو يعجب بهنري كفنان شاب لا يغرق نفسه في قضايا العالم كما لو انها تخصه ، ولكن حين يحدد هنري موقفه يجد « لامبير » نفسه وهو يبتعد عنه شيئا فشيئا فطالما كان يطالبه باعتباره مثقفا مسؤولا : « هنري ، ان عليك ان تعلمنا كيف نعيش يوما فيوم ، انك حر تعي على اشياء تؤمن بقيم ، اذن يتوجب عليك ان تظهر لنا ما يمكن ان يحب على هذه الارض وايضا ان تجعلها قابلة للسكن قليلا ، بان تكتب كتبا جميلة ، يخيل الي ان هذا هو دور الادب » ولكي يعزي نفسه ويبرر سلبيته فانه يعلن « انني لا استطيع ، انني النموذج الكامل للمثقف الصغير المسكين العاجز ابدا عن ان يصبح مبدعا» وكان يرى ان عليه اذا ما التزم ان يؤدي دورا كبيرا والا فالكل باطل ، اما الارض التي يطلب الى هنري ان يعلمه كيف تصبح قابلة للسكن فانه يراها « حزينة في كل مكان » وهو لا يعرف بعد كيف « يميز بين الخير والشر فيها » .

وفي النهاية فان « المثقفين » يعرفون طريقهم وكثيرا ما يفشلون وكثيرا ما يتبين لهم الحلم فيما يؤمنون به ولكن صدقهم يعصمهم دائما من الوقوع من اللامبالاة ، انهم يؤمنون بضرورة حظ افضل للبشرية وبمستقبل لا تنكر فيه الانسانية ذاتها على ان يكون سعيدا ، وهم يخطئون احيانا ويعجزون احيانا ويقفون كثيرا على حافة التخلي ، ولكنهم لا يتخلون ابدا ، انهم يقبلون بالعمل حتى في واقع لا يقبلون بشيء فيه « فليس هناك ارتضاء اخر غير الاختيار وليس هناك حب اخر غير التفضيل » وتقترب احلامهم وافكارهم بين حين واخر من الواقع حتى يستطيعوا القفز منه الى الافضل ، فالواقع ليس ثابتا على أي حال ان له مستقبلا واذا كان التاريخ تعيسا ومظلما فقد قرروا الا يغسلوا ايديهم منه لانه شيء هام « ان يكون اقل او اكثر تعاسة » وهم يتفقون في النهاية ان عليهم ان يعملوا من قلب الحاضر وان يقبلوا به بديلا لحلمهم ، وقد كانت مسؤولياتهم كبيرة جدا مثل ضمائرهم وقلوبهم ، وقد فات اوان التراجع ، فالانسانية تسير حتما الى جهة ما وعليهم ان يحددوا الركب بكلماتهم وان يسيروا في مقدمته ورغم انهم كانوا في حاجة الى العزاء فقد بادروا دائما بتقديمه الى الاخرين وبحثوا عن التبرير وعن الخير في كل شيء ، حتى اذا ما حدث وافلت الامر منهم يكونون قد ادوا واجبهم الى النهاية ، يكونون قد منحوا كل شيء الى حد الاستشهاد .

القاهرة — فريده النقاش

مجموعة مؤلفات

الاستاذ ميخائيل نعيمه

*

صدر منها	ق.ل
١ ــ كان ما كان	٢٠٠
٢ ــ اكابر	٢٠٠
٣ ــ همس الجفون	٣٠٠
٤ ــ مذكرات الارقش	٢٥٠
٥ ــ الاباء والبنون	٢٥٠
٦ ــ في مهب الريح	٣٠٠
٧ ــ الاوثان	١٢٥
٨ ــ النور والديجور	٣٠٠
٩ ــ أبعد من موسكو ومن واشنطن	٣٠٠
١٠ ــ البيادر	٣٥٠
١١ ــ لقاء	٢٥٠
١٢ ــ مرداد	٦٠٠
١٣ ــ ابو بطة	٣٠٠
١٤ ــ سبعون الحلقة الاولى	٥٠٠
١٥ ــ سبعون الحلقة الثانية	٥٠٠
١٦ ــ سبعون الحلقة الثالثة	٥٠٠
١٧ ــ جبران خليل جبران : حياته موته أدبه	٥٠٠
١٨ ــ الغربال	٣٥٠
١٩ ــ دروب	٣٠٠
٢٠ ــ المراحل	٢٠٠
٢١ ــ زاد المعاد	٢٥٠
٢٢ ــ صوت العالم	٣٠٠
٢٣ ــ كرم على درب	٢٠٠
٢٤ ــ اليوم الاخير	٤٠٠

الناشر : دار صادر ــ دار بيروت